# الديانات التقليدية في غرب أفريقيا

# مدخل دراسي

عاصم محمد حسن محمد

غرب إفريقيا.. تلك المساحة التي تضم ست عشرة دولة، والتي شهدت على مرّ التاريخ ازدهاراً لممالك عديدة، وثنية وإسلامية ونصرانية. وقد عُرفت هذه المناطق وانتقلت ثقافاتها لتنتشر على مستوى العالم القديم والحديث؛ بسبب الهجرات المطردة، والرحلات التعسفية لتجارة الرقيق التي كان الغرب الإفريقي فيها مضماراً لسباق محموم بين تجار النخاسة البيض في كل من أوروبا والأمريكتين الشمالية والجنوبية، كما يبين ذلك التاريخ المرير لتلك الجرائم التي ارتكبت في حق الأفارقة في تلك الحقب.

وقد اصطحب السود المجلوبون من غرب إفريقيا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية والدومنيكان وجزر البحر الكاريبي قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ إسلاميةً كانت (كأفراد قبائل المندنكا المسلمة)، أو وثنية (كأفراد قبائل السواحل الغانية ومملكة داهومي)، وشكلت تلك القيم والمعتقدات والأفكار عقول كثير من الأجيال السوداء التي استوطنت فيما بعد في تلك المناطق.

والغرب الإفريقي منطقة غنية بالديانات والعقائد المختلفة في مظاهرها والمتشابهة أحياناً في جذورها وأصولها، كما تتسم الأعراق بسلطة قبلية فائقة نادراً ما ينعتق الفرد من ربقتها وما تستلزمه من أعراف ومعتقدات معينة. كما يتسم الفرد في القبيلة ببساطة شديدة كمردود طبيعي لنسبة الأمية العالية، وصعوبة التعليم النظامي، وقلة موارد الدعم الحكومي والدولي له، ثم كان لكثافة الدغل الإفريقي وصعوبة التغلغل الجغرافي أثر بالغ في انحسار التبشير بديانات ذات وحي منزل بين أفراد تلك المناطق.

أدت تلك العوامل وغيرها إلى أن تظل كثير من القبائل على وثنيتها وارتباطها العبادي بالطبيعة وأرواح الأجداد، ولما كان الإنسان مفطوراً بالطبع على التوجه نحو وجهة عليا تفوقه في هذا الكون، ولافتقاره الطبعي لقوة تحميه من تغول الطبيعة؛ ثم لما لم يكن ثمة نور هادٍ أو وحي دال؛ فقد لجأ إنسان تلك المناطق إلى ما أسماه (الأرواح) أو (الوسائط) أو الفتيش (السحر)، كبدائل للدين الحق.






## محاور الدراسة:

تقدم هذه الدراســة صورة للديانات التقليدية في غــرب إفريقيا بصورة عامّــة، وظاهرة الفودو (Voodoo, Vodun) علــى وجه الخصوص، وهي ظاهرة عبادية وديانة تقليدية لقرابة عشرة ملايين شخص هناك، كنموذج للعقائد المنتشرة في المنطقة، حيث تُمارس في أربع دول من دول الغرب الإفريقي (بنين، توغو، غانا، نيجيريا)؛ وهي ظاهرة عالجتها شخصياً، وعاينت مجرياتها رأي العين خلال وجودي بجمهورية توغــو، وواجهت فيها مواقف متفاوتة ما بين غريب وطريف ومخيف، فهذه الدراســة شهادة حاضر، وليس من رأى كمن سمع.

- المحور الأول: تاريخ دراســة الأديان الإفريقية، ومسمياتها.
- المحور الثاني: أساســيات معتقد وثنيي الغرب الإفريقي.
- المحور الثالث: طرق دعوة الوثنيين إلى الإسلام.

وغرضــي مــن هذا البحــث تبصيــر الدعاة والحريصين على نشــر الإســلام في هذه المناطق؛ ليواجهوا هــذه العقائد بعلــم، ويجابهوا حججهم الواهية بحجج تســتمد نورها من مشــكاة الشرع، والله الموفق وعليه التكلان.

### المحور الأول: تاريخ دراسة الأديان الإفريقية، ومسمياتها:

بدأت دراســة الأديان الإفريقية قبل قرن تقريباً، قام بها علماء الســلالات البشرية anthrobologists والمبشــرون الكنسيون، ولم تكن كلمة (دين) أو (عقيدة) تطلق من قبل على الشــعائر الممارسة في إفريقيا، بل جــاء وصفها بهذه العبارات متأخراً، ولا يزال محصوراً في نطاق ضيق، والشــائع في وســائل الإعلام الغربية والأوساط الثقافية اســتخدام تلك العبارة التي أطلقها الرواد الأوائل من علمـاء الســلالات وغيرهم: Animism ؛ لوصف الطقوس والشعائر الإفريقية [١].

(1) (Ray 2000).

يقول Mbiti [٢]: إن المسميات الغربية للديانات الإفريقية قد تأثرت جداً بتلك الأوصاف الانتقاصية التي أطلقها أولئك الذين لفّقوا ونســجوا قصصاً خيالية عن الديانــات والميثولوجيا الإفريقية، فهم بهذا ينشــرون ويذيعون ما سيطر على عقول أولئك الأوائل الذين قدموا إلى هذه المناطق ووضعوا أفكاراً وأوصافاً خيالية دون ما تمحيص دقيق.

وعبارة (Animism) التي يستخدمها الغربيون لوصــف الطقــوس الإفريقية مشــتقة مــن كلمة (Anima) اللاتينية التي تعني (الروح) أو (النفس)، ويعد عالم السلالات البشرية الإنجليزي E.B.Taylor (١٨٦٦م – ١٩٤٣م) أول من أطلق هذا الاســم على تلك الشعائر[٣].

يقول تايلور: (الــروح anima عند أصحاب المعتقدات الإفريقية قابلة لمغادرة الجسد، ومن ثم الدخول في جســد آخر... إنساناً كان أو حيواناً، ثم تواصل مســيرتها في هذا الكــون بعد موت الجســد الآخر بالانتقال إلى جسد ثالث؛ وهكذا يعتقد أولئك بوجود ما لا يُحصى من الأنفس في الكون) [٤].

فعلى هذا، ووفق تحليلــه يخلص تايلور إلى أن الأديان الإفريقيــة وثنيــة؛ بمعنى أن الأفارقة

(٢) انظر: Mbiti في كتابه (African Religions and Philosophy)، ص ٧.

(3) (Mbiti,1969).

(٤) اقترح تايلور أن الأحلام والرؤى والهلوسات، وكون الجثث بلا حياة، جعلت البدائيين يستنتجون أن نفساً (باللاتينية: anima) تسكن الجسد، واستناداً إلى هذه النظرية حلموا تكراراً بأحبائهم الأموات، وافترضوا أن نفساً تستمر في العيش بعد الموت، ولكنها تحل في الأشجار، الصخور، الأنهار.. وهلم جراً. وأخيراً؛ فإن الأموات والأشياء التي اعتقدوا أن الأنفس تسكنها صارت تُعبد كآلهة. وهناك أنثروبولوجي آخر وهو R.R.Marett (١٨٦٦م - ١٩٤٣م) له نظرية أخرى (محسنة لمذهب الروحانية) دعاه (مذهب حيوية المادة animatism)، فبعد دراسته لمعتقدات ميلانيزي جزر المحيط الهادي، والوطنيين في إفريقيا وأمريكا؛ استنتج مارت أنه بدلاً من حيازة فكرة نفس شخصية؛ آمن الناس البدائيون بأنه توجد قوة غير شخصية، أو قوة فوق طبيعية تحيي كل شيء؛ وهذا الاعتقاد قد ألهب مشاعر الرهبة والخوف عند الإنسان، فصارت فيما بعد ديناً (ويُسمى عنده: الدين البدائي). (بحث الجنس البشري عن الله، إصدارة برج المراقبة، شهود يهوة).

يخدمون ويعبدون عدة آلهة، وهو الأمر الذي يعده مثقفو القارة الإفريقية وعلماء سلالاتها محض افتراء!

يُطلق أحياناً على الشعائر الطقوسية الإفريقية عبارة (Paganism) [(١)]، وهو الاسم الذي يراه كذلك عدد من الباحثين الإفريقيين مجرد اتهام.. يقول Kofi: يُطلق إسم Pagan أصلاً على أولئك الذين ليسوا بيهود أو مسيحيين أو مسلمين، ومع مرور الزمن صارت العبارة تُستخدم لأولئك الذين ليس لهم دين.. وبالطبع؛ فإن إفريقيا لها دين، ووصفُ الديانات الإفريقية بهذا الوصف يُعدّ تحقيراً وانتقاصاً لها وإنكاراً لميراثها الديني الكبير) [(٢)].

(Fitishism) [(٣)]: من العبارات التي تطلق وصفاً لديانات الغرب الإفريقي، وهي مشتقة من اللغة البرتغالية من كلمة Fetico، التي تُطلق عموماً على (أي عمل منحوت يصنعه الإنسان لغرض ديني كالتعاويذ الجالبة للحظ والتمائم) [(٤)]، والتي شاهدها البرتغاليون في رحلاتهم إلى إفريقيا على صدور وجذوع الأفارقة، ولاحقاً صارت العبارة مستخدمة لوصف أديان الغرب الإفريقي، حيث تقول Mary Kingsley: (عندما أقول Fitish أو Juju أعني بذلك الدين التقليدي لغرب إفريقيا).

(Polytheism) [(٥)]: وهو من المصطلحات المستعملة لوصف الديانات الإفريقية، ويعني: (الاعتقاد في أكثر من إله)، ويرى E.G.Parrinder في كتابه أديان إفريقيا أن الأديان عديدة الآلهة (Polytheism) متسامحة في عقائدها، يمكنها بسهولة قبول أديان وعقائد أخرى، ولا يوجد فيها آلهة غيورة تجاه الشرك؛ ما دامت لم تهاجم المعتقدات القديمة لهم، لذا أخذت هذا الوصف [(٦)].

ويُعد المصطلح الأكثر قبولاً بين الباحثين الأنثروبولوجيين الأفارقة هو ذلك الذي أطلقه هاربرت سبنسر Herbert Spencer عام ١٨٨٥م في كتابه Principles of Sociology (مبادئ علم الاجتماع)، وهو مصطلح: عبادة الأسلاف (ancestor worship)، استخدم سبنسر المصطلح بناءً على تأمله الخاص لعقائد الغرب الإفريقي، وصار المصطلح ذائعاً؛ شائع الاستخدام بين الكتاب الأفارقة لوصف أديان المنطقة.

لكن يعترض بعض باحثي الغرب الإفريقي على هذه التسمية، ويرون أن الأمر ليس عبادة بالمعنى المعروف، يقول Kofi: (بلا شك، يلعب الأسلاف دوراً كبيراً في المعتقدات التقليدية الإفريقية، ولكن تسمية الديانات الإفريقية بهذا الاسم يعد إفراطاً في التبسيط للمصطلح.. نعم للأجداد احترام خاص، فالأبناء يحرصون على إطعامهم، واستشارة أرواحهم في أغراض علاجية روحية، ولكن ليس الأمر عبادة محضة كما اصطلح) [(٧)].

ويبدو واضحاً أن الفلاسفة وعلماء الأديان (سماوية كانت أو تقليدية) لم يستطيعوا اختيار اسم جامع يرضى عنه معتنقو هذه النِّحل. وتخضع معظم التسميات لثقافة المجموعة أو القبيلة المعتنقة لديانة معينة، بل يشجع بعضهم على التسميات المتخصصة حسب المناطق أو الأعراق (الإثنيات)، مع جعل اسم واحد يصنف كل الأديان تحتها بمسمى (الديانات الإفريقية التقليدية) (African Traditional Religions).

(١) ترجمة كلمة Paganism في القواميس الانجليزية: دين وثني، رجز: عبادة الأوثان، وثنية.

(2) (Kofi 1978, p 4).

(٣) تترجم كلمة Fitishism في القواميس الإنجليزية بالبدّية، البدائية، طقوس دينية قائمة على التعاويذ - Atlas.engkish Arabic talking Dictionary

(4) (Kofi 1978).

(٥) ترجمة كلمة Polythism في القواميس الإنجليزية: الإيمان بعدّة آلهة أو عبادتها Atlas.engkish -Arabic talking Dictionary.

(6) (Epworth Press, London,1961, p11).

(7) (Kofi 1976).




في خمسينيات القرن المنصرم بدأ المثقفون الغربيون في إطلاق عبارات إيجابية (وفق تعبير البحاثة الأفارقة) تجاه الطقوس والمعتقدات الإفريقية، ومنها عبارة دين Religion، وقد أسهم في هذا التحول مجموعة من علماء السلالات البشرية مثل [1] Edward.E.Evans و Mercel Griaule و Victor Turner، والأنثروبولوجيّين الإفريقيّين: E.Bolaji Ido و John Mbiti اللذين جَهِدا في إثبات معرفة إنسان إفريقيا الأول للإله قبل أن يعرفه المبشرون أنفسهم! يقول Mbiti : (المبشرون الذين جلبوا الأناجيل إلى إفريقيا قبل مائتي سنة فقط؛ لم يكونوا هم الذين أتوا بالرب إلى قارتنا، ولكن (الربّ) هو من أتى بهم! إنهم يستخدمون اسم: (الربّ) الذي عرفه إنسان إفريقيا قبلهم فهو Katonda، Nagi، Asis، Rohanga، Jok، Mungu، Mulungu، Modimo، Olodumare و Unkulunkulu.. وآلاف الأسماء الأخرى التي تشير إلى الإله الواحد خالق هذا الكون..!) [2].

يصعب جداً الفصل بين الشعائر التعبدية ومسالك الحياة اليومية عند أصحاب الديانات التقليدية الإفريقية؛ حيث تجد الأفكار والمفهومات الطقسية تتغلغل في ثقافة القبيلة؛ في قصصها وأساطيرها، طقوسها العلاجية والجنائزية، أعيادها واحتفالاتها.. يقول Ray: (إن كلمة دين Religion بمفهومها الغربي (مفصولاً عن الحياة) لا توجد في التصور الإفريقي، بل لا توجد تلك العبارة في لغاتهم؛ لأن الدين يتغلغل في حياة الإفريقي اليومية كسلوك مباشر).

وهو المفهوم الذي حدا بـ Idowu: أن يقول عن الأفارقة أنهم (أولئك الناس الذين يستخدمون الدين في كل حياتهم) [3]، وأن يقول Iwuoha: (الدين أمر يدور حول البشر وحياتهم في إفريقيا) [4].

ويقول Mbonu Ojike: (إذا كان الدين هو ما يُتاح قبوله لكل البشر فإفريقيا ليست لها دين، أما إن كان الدين يعني: العمل أكثر من الكلام، فإن إفريقيا متدينة) [5].

كما يقول Mbiti: (الأفارقة متدينون للغاية، ولكل شعب منظومته الدينية الخاصة مع سلسلة معتقدات وممارسات، ينفذ الدين إلى كل مؤسسات الحياة بصورة من الاكتمال يصعب أو يستحيل معه عزلها. دراسة مثل تلك المنظومات الدينية بالتالي، هي في نهاية الأمر دراسة الناس أنفسهم في كل تعقيدات الحياة التقليدية والحديثة...

ولأن الديانات التقليدية تنفذ إلى كل مؤسسات الحياة، فلا وجود لتمييز شكلي بين جوانب الحياة المقدسة والدنيوية، بين الدينية وغير الدينية، بين الروحية والمادية. أينما حل الإفريقي، هناك توجد ديانته، إنه يحملها إلى الحقول حيث يزرع البذور، أو يحصد محصولاً جديداً، يحملها معه إلى احتفالات الجعة، أو لحضور مراسم جنازة، وإذا كان متعلماً فإنه يأخذ ديانته معه إلى قاعة الامتحان في المدرسة أو في الجامعة، وإذا كان سياسياً فإنه يأخذها معه إلى البرلمان. رغم أن العديد من اللغات الإفريقية ليس فيها كلمة «ديانة» صرفة؛ فإنها ترافق مع ذلك الفرد منذ أزمان سابقة لمولده حتى أزمان طويلة تعقب وفاته الجسدية. عن طريق التغير الحديث فإن تلك الديانات التقليدية لا يمكنها أن تظل غير متبدلة، لكنها ليست منقرضة بحال من الأحوال. في أوقات الأزمات تطفو تلك الديانات إلى السطح، أو أن الناس يعودون إليها سراً) [6].

(1) (Paris 1984).
(2) (Orita 1967).
(3) (Iwuoha 2002).
(4) (John Day 1946).
(5) (Mbiti 1969).
(6) (Mbiti 1969).

إذن فالديـــن والعلائـــق الروحيّـــة أمر أصيل فـــي المجتمع الإفريقي، حتـــى يظهر ذلك في نظام التســـمية للمواليد الجدد، حيث يشيع في كثير من القبائل الإفريقية تسمية المولودين الجدد بناء على أحداث، ظروف، أو مناسبات أو أيام ميلادهم، وإن كانت الأخيرة هي الأكثر شـــيوعاً، ونجدها مرتبطة في مجملها بالقيم الدينية.

الجـــدول الآتي يوضح أمثلـــة لقبائل الإيفي- الفون- الأكان في غرب إفريقيا في نظام تسميتهم وفق الأيام:

## المؤلفات السابقة:

كتب عـــدة باحثين حول هـــذه الأديان والنحل الإفريقيـــة، وكان للقساوســـة والأنثروبولوجيـــين النصارى قصب الســـبق في الكتابة والبحث، مثل القس الكاثوليكي البلجيكـــي Placide Tempels الذي كتب كتابه Bantu Philosophy عام ١٩٤٥م (الطبعة الأولى بفرنسا، وخرجت الطبعة الإنجليزية الأولى عام ١٩٥٩م)، حول ديانة البالوبا (Baluba) في زائير، وهو أول من أطلق مصطلح (القوة الحيوية) للتعبير عن الفلسفة الأساسية لإيمان البالوبا، وقد

| أيام الأسبوع (ايفي، فون)/ أكان | أيام الأسبوع | أسماء الإناث (إيفي، فون) / أكان | أسماء الذكور (إيفي، فون) / أكان | المعنى (ايفي فون/ أكان) |
|---|---|---|---|---|
| Dzoda/Dwoda | الإثنين | Adjua/Adjoa | Kodjo/Kojo | المتوسل (أو المتضرّع) / طفل السلام |
| Blada/Benada | الثلاثاء | Abla/Abena | Komla/Kwabena | القوي / طفل النار |
| Kuda/Wukuda | الأربعاء | Aku/Akua | Koku/Kweku | الشجاع / المشهور |
| Yoda/Yawdo | الخميس | Ayawa/Yaa | Yao/Yaw | المصون (غير قابل للفساد) / القوي / |
| Fida/Fida | الجمعة | Afi/Afua | Kofi/Kofi | الطفل الأعجوبة / الطفل النامي |
| Memlida/ Memenda | السبت | Ame/Ama | Komi/Kwame | المثير / الذي سيرتقي مكانا عاليا |
| Kosida/Akwesida | الأحد | Akosiwa/Akosi | Kosi/Kwesi | القائد / ابن الشمس |




استخدم هذا المصطلح أيضاً في دراسات أخرى تالية له [1].

وكذلك E.G.Parrinder في كتابه African Traditional Religion، وهو تعريف عام ومحاولات تصنيفية لأديان المنطقة الإفريقية، وأيضاً Evan Pretchard في كتابه Nuer Religion الذي يتناول عقائد قبيلة النوير بجنوب السودان، وGeoffrey Lienhard في كتابه Divinity and Experience الذي يتناول عقائد وعبادات قبيلة الدينكا بجنوب السودان كذلك.

ومن بين الكتّاب الأفارقة نجد Jomo Kenyatta الرئيس الأسبق لكينيا ومؤلف كتاب Facing Mount Kenya (١٩٣٨م)، والكاتب J.B.Danquah في كتابيه Akan Doctrine of God (معتقد الأكان حول الربّ) (١٩٤٤م)، و Akan Laws and Customs (قوانين وأعراف قبيلة الأكان) (١٩٢٨م)، والكاتب Mbonu Ojike في كتابه: My Africa (١٩٤٦م)، و Archdeacon J.Olumide Laucas في كتابيه The Religion of Yoruba (دين اليوروبا) (١٩٤٨م)، و Religions in West Africa and Ancient Egypt (أديان الغرب الإفريقي ومصر القديمة) (١٩٧٠م)، والكاتب: E.Bolaji Idowu في كتابيه: Olodumare: God in Yoruba Belief (١٩٦٢م)، وAfrican Traditional Religion: A Definition (الأديان التقليدية الإفريقية: تعريف) (١٩٧٣م)، والكاتب: Kofi Antubam في كتابه Ghanas Heritage of Culture (١٩٦٣م).

## المحور الثاني: أساسيات معتقد وثنيي الغرب الإفريقي:

- أولاً: (الرب) في معتقد وثنيي الغرب الإفريقي:

الفكرة الرئيسة حول هذا المعتقد هي: الإيقان بإله واحد خالق لهذا الكون؛ يُعرف بأسماء عديدة وهو روح عليا سامية لا توجد له تجليات صورية مرئية، وهو المصدر الرئيس لكل قوة وطاقة في هذا الكون، وهو المعني أساساً بعملية الإماتة والإحياء.

ويوضح الجدول الآتي بعض هذه الأسماء ومعانيها للخالق الأسمى عند بعض المجموعات في غرب إفريقيا [2]، وهناك كثير غيرها:

| | | |
|---|---|---|
| سيراليون Menda Kono | Leve | الخالق الأعظم، العليّ |
| | Ngewc | الربّ، الروح العظيم |
| | Maada | الجدّ |
| | Mahawa | الرئيس الأعظم |
| | Maha-yilei | الرئيس الأوحد |
| غينيا Tenda | Maha-Ngewc | الرئيس الرب |
| غانا Akan | Yataa | الذي تجده في كل مكان |
| | Meketa | الأزلي الذي لا يموت |
| | Hounounga | الذي لم يره أحد |
| | Onyame | الكائن الأسمى، الرب خالق كل شئ. |

يتضح من الأسماء والأوصاف السابقة ذلك التقدير وتلك المكانة التي يعطيها أصحاب الديانات الوثنية للإله الأسمى، وأنه ذو فوقية وعلو على المحسوسات فلا يتجسد فيها، ولا يمكن تصور هيئته بوصفه روحاً سامية، وهذا يتضح جلياً من تسمية يطلقها عليه أهل نيجيريا معناها (الذي لا يدرك كنهه أحد)، ويعبر الـ Akan maxim عن هذا الأمر بقولهم (إذا أردت أن تتحدث مع الرب فأخبر الريح - يعني تنقل حديثك -) [3].

(1) (Mbiti, p 10).

(2) ( Kofi 1978).

(3) (Kofi 1978).

١. الرب الخالق:

الإيمـــان بأن اللـــه هو خالق هـــذا الكون أمر راسخ وأساسي في معتقد وثنيي الغرب الإفريقي، وتختلف قصصهم وفـق الميثولوجيا المتبعة في كل قبيلــة أو عرقيــة، فمثلاً قبيلــة Tiv في نيجيريا يطلقون اسم النجار على الخالق عز وجل (Ando Gbe Tar)؛ أي الـــرب النجـار، ويتخيلونه - تعالى وتقـدّس - نجــاراً يصنع المنحوتــات، وقبيلة الـ Lodagaa يتخيلـــون عملية خلقه - تعالى وتنزه - للخلق كصانع القدور مع قـــدوره، أما قبيلة الفون في بنين فيعتقدون أن الكون قد تكون بمشيئة الرب (Mawu-Lissa)، ويعبرون عن الخلق بأنه قد قام وتكوّن بكلمة Fa (كن).

كما تجد عنـــد بعض القبائل الأخرى في غرب إفريقيا تصورات أسطورية للخلق بناء على بساطة العقول واســـتحكام قوة الطبيعة بغير توجيهات من الوحي؛ كقبيلة الميندي Mende في تصورهم للإله داخل كهف ومعه مجموعة مـــن الكائنات، يأمرهم بألا يأكلوا طعامه - تعالى وتنزه -، فتقترب بعض الكائنات فيمســـخها إلى الصور المعروفة حالياً من الكائنات، كائناً بعد آخر [١].

أما عند اليوروبا ففي اعتقادهم أن الأرض كانت في الأصل مستنقعات سبخة، ويسكن Olodumare (الاســـم الذي يطلقونـــه على الله عـــز وجل) في الســـماوات، مع الآلهة الأخرى (الأقل منه شأناً) - تعالى وتنزه ســـبحانه الواحد -، وأرادت هذه الآلهة زيارة الأرض للّعب والصيد، ونزلوا من الســـماوات على شبكة العنكبوت، وشاء Olodumare أن يحول الأرض المائية إلى صورة صلبة، فاســـتدعى رئيس الآلهـــة Orisha-nla، وعهد إليـــه بالمهمة، وأعطاه تربة في صدفة حلزون (وفـــي بعض الروايات في حقيبة صغيرة من أوراق الشـــجر) جمعتها دجاجة وحمامـــة، فنزل Orisha-nla وســـكب التربة على الأرض الســـبخة، وغطت التربة مســـاحة ضخمة شـــكلت فيما بعد اليابســـة. ورجع Orisha ليخبر Olodumare بمـــا حدث، فأرســـل Olodumare رســـوله الحرباء ليتأكد من الأمر، فذهبت الحرباء المـــرة الأولى وعادت قائلة: الأرض واســـعة ولكنها ليست جافة بما فيه الكفاية. ثم ذهبت المرة الثانية وعادت قائلة: الأرض الآن واسعة وجافة [٢].

تعتقد قبيلة الفون Fon، في جنوب بنين (مملكة داهومي ســـابقاً)، أن الخالق (ســـبحانه) قد سلك مســـلكاً خاصاً في خلقه للعالم الذي استغرق أربعة أيام، فـــي اليوم الأول أمـــر Mawu-Lissa بكلمته Fa الكون بالتكون وخلق الإنســـان، في اليوم الثاني أرسل رسولاً خاصاً ليهيئ الأرض ويجعلها صالحة لســـكنى الإنســـان، وفي اليوم الثالث أعطى الربّ الإنسان نعمتي البصر والكلام ليتعلم ويعرف، وفي اليوم الرابع والأخير أعطى الربّ الإنسان المهارات والحِرف التي تمكّنه من الاستفادة من البيئة والكون المحيط به [٣].

يُعتقد أن كل ما خلقه اللـــه صالح، ولقبيلة الـ Akan فـــي غانا حكمة ســـائرة حول هذه القضية (صـــلاح الخلق)، حيـــث يجعلونها فـــي فم الصقر (Ksansa) الذي يقول: (كل ما خلقه الله جيد)، ولهم كذلـــك تعبير مختصر عن عملية الخلق يســـردونه بلغة الطبول[٤]: (Kdomankoma (الرب) خلق أولاً Esen (حاجب المحكمة)، ثم Kyrema (الطبال) ثم أخيراً Kwawu Kwabrafo (الموت) ).

Esen يقوم بمهمته، وهي الإعلان عن القرارات التي يتخذها رئيس المحكمة (الرب)، Kyrema يرمز

(1) (W.T.Harris) و H.Sawyerr / The Springs of) (Mende Belief and conduct).

(2) (Kofi 1978).
(3) (Kofi).
(٤) لغة خاصة تستخدم في المجتمعات البدائية، حيث لم تتوفر وسائل المواصلات الحديثة، تعتمد هذه اللغة على السماع، وتعد لها طبول ضخمة من جذوع الأشجار المفرغة، ولها عدة إيقاعات للمناسبات المختلفة، للتحذير أو الحرب أو الزواج، كما لها مفرداتها الخاصة. (المؤلف).




إلى العلـم، حيث أنه يعرف تاريـخ القبيلة وحكمة المجتمع، ويسـتطيع ترجمتها عبر الطبل، Kwawu Kwabrafo (الموت) هو المنفذ للحكم.

إذن يلخص الـAkan عملية الخلق بلغة الطبول إلى: الأمر بالخلق، ثم خلق العلم، وأخيراً الموت [1].

تشترك كل الأسـاطير المبينة للخلق عند قبائل الغـرب الإفريقي في بيان عملية انفصال الخلق عن الخالق، وفي الأغلب الأعم يؤمنون بأن الخالق والبشر كانا في مكان واحد، في علاقة قوية أشـبه ما تكون بعلاقـة الأب مع أطفاله، ثم حدث شـيء غيّر هذه الوضعية. إحدى أساطير الخلق الموجودة عند قبيلة Mende التي تذكر قصة الخالق مع الخلق في كهف واحد، حيث منعهم من الاقتراب من طعام معين، فلما أكلوه انفصلوا عنه. لهم رواية أخرى تذكر سبباً آخر عن انفصال الخالق عن الخلق وإعطائه اسم: Leve (الأعلى)، حيث يعتقدون أنه: في زمان سـحيق خلق الرب الكون ثم ختمـه بخلق الرجل والمرأة، ولم يكن هذان (الرجل والمرأة) يعرفان اسـم الربّ الحقيقي فقط كانا ينادينه بـ:Maada-le (الجدّ).

في يـوم من الأيام خاطبهم الـرّب قائلاً: (كل ما تسـألوني أعطيكموه)، فكانا كلما أرادا شـيئاً أو طعامـاً ذهبا إليه وقـالا: Maada أعطنا كذا.. فيعطيهما قائلاً: In-ngee (نعم، خذا)، ولأجل هذه الكلمة ولأنه دائماً ما كان يقولها لهما ظنا أن اسمه هو Maadagee (الجد: خذ). ولما كانا يكثران من التردد عليه قال الرب في نفسـه (تعالى وتنزه عن قولهم): لو بقيت قريباً منهم سيضجرونني بأسئلتهم المتكررة، سأجعل مكاناً لنفسي بعيداً عنهم. وفي يوم ما أصبح الناس وما وجدوا الرب في مكانه، فرفعوا رؤوسـهم لأعلى فرأوه فوقهم عظيماً وكبيراً جداً فقالـوا: Ngeewklanga-waa-le (خذ! ما أكبره وأوسـعه وأعظمه) من أجل هذا – حتى اللحظة – يقولـون: Ngewcwaa (الرب عظيم).

(1) (Kofi).

عند Akan كان الرب والبشـر في مكان واحد معاً؛ حيث كانوا يمسونه ويشعرون به (تعالى وتنزه سـبحانه)، وبدأت امرأة بطحن الـ :Fufu بانتظام باسـتخدام الهاون، وكانت يد الهاون ترتطم بالرب (تعالى عما يقولون) كلما دقت الفوفو ففارق البشر إلـى السـماوات، وعندما أدرك البشـر ما حدث حاولوا البحث عن طريقـة تُرجع الرب مرة أخرى إلى وسـطهم، اقترحت تلك المرأة العجوز أن يأتي كل واحد منهم بهاونه ويضعوها فوق بعضها ليكوّنوا ما يشبه السلّم ليصلوا إليه.. طبقوا الأمر واكتشفوا أنهم في حاجة إلى هاون واحد فقط ليكملوا السلم، عندها اقترحت المرأة العجوز مرة أخرى أن يسحبوا الهاون الذي في قاعدة السلم ويضعوه في الأعلى، فلما سحبوه انهار كل البناء وقُتل كثيرون [٢].

ولليوروبا أكثر من قصة تروي هذا الانفصال، يقول (Idowu): تقول الروايات الشفهية إن السماء كانت قريبة من الأرض، وكان من الممكن لكل واحد أن يصعد إلى السـماء ويرجع وقتما يريد، وكان هناك علاقة مباشـرة مـع Olodumare، وكان إذا مد واحد يده اسـتطاع أن يدرك بها السماء، وكان بلا شـك ثمة وقت كان الاتصال بين السماء والأرض بغير حدود أو حواجز، كانت فترة ذهبية من عمر الكون. وحدث شيء أحدث هذه المسافة بين السماوات والأرض، وهناك قصص كثيرة جداً حول ما حدث، إحداها أن هناك شـخصاً شرها أخذ طعاماً كثيراً جداً من السـماء لذا انفصلت، وأخرى تـروي أن امرأة لمسـت السـماء (غير الصلبة) بيد متسـخة فانفصلت [٣]، وقصة أخرى عندهم تذكر إنزالOduduwa – وهو الإنسـان الأول وسـلف اليوروبا – من السماء إلى الأرض، وقد نزل متعلقاً بسلسلة من حديد [٤].

(2) (Kofi).
(3) (Idowu).
(٤) لويد ١٩٨٠م. ص ٣٦.

كل هذه القصص المأخوذة من الفو واليوروبا والمندي في غرب إفريقيا؛ مؤداها ونتيجتها أن الإنسان كان في وقت ما قرب الرب في مكان ما، ثم حدث شيء ما جعل الإنسان بعيداً عن الربّ، ولعل هذه القصص - في روحها - تشي بوجود قديم للمعتقد الكتابي عن آدم وحواء عليهما السلام في جنة عدن، وربما كان ثمة نور هاد من قبل في المنطقة انطمس بمرور الزمن.

وفي دراسة عن عقائد القبائل الوثنية في إفريقيا يقول القس جاك ماندلسون: (إن فكرة الله الأعلى، تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور، والذاتية الاكتفاء والشاملة القدرة، نجده بين كثير من القبائل، كالزولو بجنوب إفريقيا، والبايراوندا والاشانتي بغانا وساحل العاج، والآكان بغانا، واليروبا بنيجريا والبكونجو بأنجولا، والنجومية بالكونغو.

ويجب ألا يفوتنا هنا أن نذكر أن لدى الأقزام [1] - وهم أقدم سلالات إفريقيا - كائناً يُطلقون عليه اسم (مونجو)؛ وإلى هذا الكائن العلي يعزو الأقزام، أيضاً، خلق جميع الأشياء، وأنها ترجع إليه، كما أن هناك أسطورة بين قبائل لشاجا (بتنزانيا) تروي أن الله قد غضب من أعمال البشر فأهلكم فيما عدا قلة، وجليّ مدى التشابه بين هذه الأسطورة وقصة سيدنا نوح.

ويروي البامبوتي والتشاجا والميروكيف [2] أن الرب حرّم أكل ثمار شجرة معينة على الإنسان، وكيف أنه حينما عصى الإنسان الأمر وأكل منها جاء الموت إلى الأرض.

وفي جميع الأديان الإفريقية التقليدية اعتقاد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح... ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً في هذه الديانات، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصور الكثير من الناس. وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا مثلاً أن الله، مع أنه يشفي من المرض، قد يصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة) [3].

### ٢. الرب الجد:

تسود في غرب إفريقيا عند القبائل الوثنية تسمية الربّ (سبحانه وتعالى) بالجد، إضافة للاسم الرئيس الذي يطلقونه عليه سبحانه، والجدول الآتي يوضح ذلك:

يقول Kofi: (إن للجدّ عند قبائل غرب إفريقيا تقدير خاص، وتسمية الربّ بالجد توافق ذلك التقدير والتعظيم الذي يعطونه للرب، ولا يلزم من التسمية جعله بشرياً. ويُعد الجد عندهم رأس العائلة، وهو الشخص الذي ترجع إليه كل القضايا ليحكم فيها، ويحظى باحترام وتقدير كبيرين جداً، ويرسخ رؤساء القبائل وبقية الكبار فيها لهذه المفاهيم بنفس القدر، فإن تسمية الربّ بالجد الأكبر، أو السلف الأعظم منبثقة من الدور الذي يؤديه كرئيس وقائد أعلى للمجتمع) [4].

### ٣. عبادة الرب:

بصورة عامة، وعلى النمط المعروف للشرك عبر القرون، لا توجد أية عبادات تُصرف لله سبحانه وتعالى مباشرة عند وثنيي غرب إفريقيا؛ بالرغم من الأسماء المشعرة بالتقديس والتعظيم لله عز وجل مما تنضح بها أدبياتهم.

ولا يجد المرء هيكلاً أو مبنى مخصصاً لعبادة الله وحده (على كثرة الهياكل والمباني العبادية)، كما لا يوجد بينهم كهنة أو سدنة مخصصون للإرشاد إلى عبادة الله سبحانه، مثل أولئك المكرسين للدلالة

(١) قبائل الأقزام أو «البيغمي» هي القبائل التي تعيش في الغابات على صيد الحيوانات، وتنتشر هذه القبائل في وسط إفريقيا وغربها، وفي الكونغو برازافيل، والكاميرون، والغابون، وجمهورية إفريقيا الوسطى، ورواندا، وبوروندي، وأوغندا.

(٢) مجموعة من قبائل الأقزام في الكونغو.

(٣) الرب والله وجوجو.. الأديان في إفريقية المعاصرة، تأليف القس جاك مندلسون، من الكنائس التوحيدية (unitirian churches)، ترجمة إبراهيم أسعد، ص ١٠٨.

(4) (Kofi, 25).




على كيفية عبادة الآلهة وأرواح الأسلاف، ولهم في ذلك فلسفة ليست بالغريبة على المسلم المتمعن في كتاب الله سبحانه، يقولون: (الربّ دائماً خيّر، لا يؤذي ولا يضرُّ ولا يحتاج إلى استرضاء كما الأرواح والآلهة التي يخشى غضبها وإيذائها) [١].

وهذا شبيه بما ذكره المولى سبحانه في كتابه العزيز عن مشركي مكة؛ إذ كانوا يقدّمون القرابين والهدي لآلهتهم بمزاعم شبيهة بما يزعم هؤلاء، ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، قال أبو محمد بن عطية الأندلسي في تفسير هذه الآية: (وسبب نزول هذه الآية أنّ العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءاً تسمّيه لله وجزءاً تسمّيه لأصنامها، وكانت عادتها التحفّي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله؛ إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم أقرّوه، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الله ردّوه، وإذا تفجّر من سقي ما جعلوه لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدّوه، وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا: لا بدّ للآلهة من نفقة. فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك، قال هذا المعنى ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي وغيرهم؛ أنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السّنة أكلوا من نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم) [٢].

وكذلك ثمة مزعم آخر منهم، وهو أنّه لا يُتصوّر أن يرتبط الإنسان بالكائن الأسمى مباشرة إلا عبر وسائط تُسترضى من البشر لترضي بدورها الربّ.

### ثانياً: الأسلاف:

يكنّ معتنقو التقاليد الإفريقية في غرب إفريقيا لأرواح الأسلاف احتراماً وتبجيلاً كبيرين جداً، يقول فرانسوا لا بلانتين: (إن بانتيون الأجداد ليس نسخة طبق الأصل لعالم الأحياء على غرار ما نجده في نظرية أفلاطون الأولى... فالأجداد الذين يتم ذكرهم وتمجيدهم مرات عديدة في اليوم هم بالأحرى قوة حافظة تمنح الحيوية، وتقوي القرية، وتضمن تناغمها، وتتيح تحييد قوى أخرى وإبعادها) [٣].

يؤمن وثنيو الغرب الإفريقي بتجوّل أرواح الأجداد في الكون الفسيح، ويعتقدون أن علاقتهم مع أسلافهم علاقة قوية، ويشعرون برقابتهم المستمرة عليهم لاعتقادهم بوجودها حولهم وفيما بينهم، يقول Paris: (من وجهة نظر هؤلاء: لا يوجد موت بالمعنى الشائع، بل يؤمنون بخلود النفس (الروح)، وأن هذه الوضعية التي اتخذتها الروح تجاه هذا الشخص بخروجها منه ليست إلا بداية لدورة جديدة خارج جسده المادي، وتسمية هذه الأحوال موتاً يعد أمراً مغلوطاً، بل هو تحول من الحالة الفيزيائية للحياة إلى الحالة الروحية الخالدة) [٤].

إن الإيمان بمواصلة الأسلاف لحياتهم بعد الانتقال (الموت) أمر شائع، والأموات عند بعض القبائل موجودون وسط الأبناء؛ فمثلاً عند قبيلة اليوروبا يظل الأب الذي توفي يُسمّى Baba si (أبي)، والأم المتوفاة Iya mi (أمّي)، ويُعاملون كأنهما لا يزالا على قيد الحياة، فالموتى قد انتقلوا فقط من عالم مادي إلى عالم روحي دون أن يقطعوا الوشائج مع الأحياء [٥].

(1) (Kofi, 30).

(٢) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ص ٦٦٥.

(٣) أبحاث في السحر، مجموعة دراسات، ترجمة محمد أسليم، مكناس، مطبعة سندي ١٩٩٥م.

(4) (Paris 1995, 52).

(5) (Chife).



ويعبّر عن إيمانهم بهذا الأمر الشاعر السنغالي المشهور Birago Diop في قصيدة له قائلاً (١):

الذين ماتوا لم يذهبوا أبداً..
إنهم هناك.. في الظلال الكثيفة..
الموتى ليسوا تحت الأرض..
إنهم في الأشجار حين تصدر حفيفاً..
إنهم في الأخشاب حين تصدر أنيناً..
إنهم في تلك المياه الجارية..
إنهم في الأكواخ.. إنهم وسط الحشود. ...

ويعتقد وثنيو الغرب الإفريقي أن الأسلاف يسكنون (أرض الأرواح) (إذا حققوا أموراً معينة في حياتهم)، ويعتقدون أن الحال التي مات عليها الشخص هي التي تحدد درجته ورتبته في هيكل الأسلاف، مثلاً تعتقد قبيلة الأكان بغانا أن المرء لكي يصير سلفاً لا بدّ له من حياة سابقة ذات قيمة وشرف، وأن يكون قدوة حسنة خلال سني حياته، ويموت عن عمر كبير وأبناء وأحفاد (٢). وكذلك اليوروبا؛ يعتقدون أن الموتى الأحداث غير مؤهلين للدخول في منظومة الأسلاف، وأن على المرء أن يموت ميتة (جيدة)، فلا يدخل في الأسلاف من مات بحادث، أو انتحار أو شكل آخر من أشكال الموت العنيف. وكذلك ألا تكون الميتة لسبب مجهول، أو بسبب الجنون، الاستسقاء، الجذام أو الصرع. وتتشابه تقريباً الشروط التي تحددها مجموعات الغرب الإفريقي ليدخل الميت في نسق الأسلاف.

يحظى كبار السن باحترام وتبجيل كبيرين في مجتمع غرب إفريقيا عموماً، وعند القبائل المؤمنة بقوة الأسلاف الروحية خصوصاً، فهم يعتقدون أن كبير السنّ قد مرّ بمراحل عديدة في هذه الحياة تؤهله لنيل درجة رفيعة من الحكمة والخبرة، وبالتالي القرب من الله؛ مما يؤهله أن يكون بعد مماته (وفق الشروط) سلفاً يحيا مع الربّ في مكان واحد!

(1) (Munto 1961, p. 108).
(2) (Kofi, 36).

وعلى سبيل المثال يعتقد وثنيو الميندي Mende في سيراليون أنّ الأسلاف ذهبوا ليستريحوا مع الربّ، ووثنيو الكونكومبا Konkomba في شمال غانا؛ يقولون إن أسلافهم قد ذهبوا إلى Uumbwardo (بيت الربّ).

ويقول J.B.Danquah عن معتقد قبيلة الأكان - في غانا - حول الأسلاف: (يعملون كوسائط بين البشر والكائن الأسمى، وتستجاب الصلوات المرفوعة للربّ بسرعة إذا مرّت عبر الأسلاف) (٣).

يسود اعتقاد بأن الأسلاف يمارسون حياتهم ويستكملونها، ويفتقرون إلى المقومات الأساسية للعيش (الماء والطعام). تقول Margaret Greel: (يحتفظ الأسلاف بكل انفعالاتهم ورغباتهم كما كانوا من قبل، فهم يشعرون بالجوع والعطش، يغضبون ويسرون؛ وينتقمون إذا ما أُهملوا، ويرضون إذا ما عوملوا بالاحترام اللائق، ووفاء الأبناء تجاه الأسلاف هو الذي يقيهم من الجوع والعطش إذا قُدمت القرابين بصورة منتظمة) (٤).

لذا يحرص وثنيو الغرب الإفريقي على التواصل كلما أحسوا برغبة الأسلاف في شيء من الاهتمام، والذي غالباً ما يعرفونه من خلال الأحلام وتكهّن العرافين.

والطريقة الشائعة بين القبائل الوثنية في الاتصال بالأسلاف هي طقوس الإراقة (٥) Libation التي قد تشتمل أحياناً على تقديم قرابين من طعام وخمر، ويمارس هذا الطقس فردياً وجماعياً، فقبل أن يشرب المرء منهم خمراً أو ماءً فإنه يريق بعضاً منه على الأرض، ويعتقد أنه بهذا قد أعطى سلفه ما يحتاج من ماء أو خمر، وقبل الأكل يلقي بلقمة من طعام على الأرض للأسلاف،

(3) (Danquah).
(4) (Paris 1995, 52).
(٥) (طقس الإراقة) طقس وثني، يعتمد على إراقة بعض الخمور على الأرض استرضاء للأرواح والآلهة. يُمارس في عدد من الديانات الوثنية، وانتقل إلى بعض الطوائف النصرانية.

ويشـــيع كذلك ســـلوك بين وثنيي الغرب الإفريقي، وبخاصة بين وثنيي قبيلـــة الأكان، وهو التأكد قبل النوم من أن خزانات المياه بالبيت تحتوي على شيء من الماء، فالأســـلاف ســـيتجولون ليلاً، ويحبون أن يرتووا من بيوت أقربائهم.

يلخص لنا Kofi Opuko أســـس الاعتقاد في الأسلاف كما يأتي [1]:

١. الاعتقاد في اســـتمرارية حياة الأسلاف وعدم انقطاعها بالموت.

٢. الاعتقـــاد في أن للأجداد عهـــداً (وهو حماية العائلة أو القبيلة أو الأســـرة)، وأن هذا العهد صـــار منوطاً بهم منـــذ أن دخلـــوا في هيكل الأســـلاف، وهم يعطون أحفادهـــم مزيداً من القوة والحماية.

٣. يعد الأسلاف (ضابطين) للحركة الروحية (غير المرئية) للمجتمع، فبتذكر الفرد منهم للأسلاف، وبالتزامـــه بقوانينهم وأحكامهم الناجزة؛ تصير حياته أكثر ضبطاً والتزاماً.

٤. الإيمان بتناســـخ الأرواح وعودة أرواح الأسلاف في أجساد أبنائهم مرة أخرى.

## ١. طقوس الأسلاف:

معظـــم الاحتفـــالات الطقوســـية الوثنية في غرب إفريقيا تحتوي على فقـــرات خاصّة بإطعام الأســـلاف، وعند قبيلة الإيفي والأكان والأشـــانتي يوجد تقدير خاص لما يُســـمى (كرسي الأسلاف)، وهو لا يســـتعمل للجلوس فقط، لكن له دلالة رمزية للأسلاف والرؤساء في الأسرة.

- كرسي الأسلاف:

عنـــد قبيلـــة الأكان مهرجان خاص بكرســـي الأســـلاف يســـمونه Adae، حيث يُحتفل بكراسي الأسلاف العظماء (يعتقدون أن موت الجد على هذا الكرسي يجعل له مكاناً خاصاً في هيكل الأسلاف)، حيث تســـوّد الكراســـي، وتجعل في بيت الكراسي الخاص بالرؤســـاء. وكل رئيس لقبيلة الأكان ينحت لنفسه كرسيّاً من شـــجرة (Funtumia africana) أو شـــجرة الأومنيـــا (Alstonia bonei)، وعندما يموت، يوضع على كرســـيّه ثم يغسل قبل دفنه، ثم يحفظ الكرســـيّ في مكان آمن حتـــى يأتي ميعاد طقوس التسويد.

يحتل طقس التسويد مكانة مهمة في الاحتفال الجنائـــزي للرئيس الســـابق للقبيلـــة، ويقوم عليه حامل كراســـي الأجداد، والذي يعين بدوره من قبل بقيّة الحمّالين. وتقام طقوس التســـويد ليلاً حيث يؤتى بجميع الكراســـي السابقة ليسوّد الجديد في حضرتها (عند الأشـــانتي يتم التسويد في حضور الكرسي الذهبيّ).

قبل التســـويد يُغسل الكرسي جيداً بالماء (عند بعض بطون الأكان: يؤتى بالكراسي القديمة، وتغسل في طســـت نحاســـي كبير، ثم بفضلة الماء يغســـل الكرســـي الجديد ليندمج الكرسي الجديد كلياً في سلفه)، بعد الغسل يسوّد الكرسي الجديد بتلطيخه بمادة ســـوداء مخلوطة بمحّ البيض، ثم يلطّخ لاحقاً بدم شـــاة، وقطعة من شحم حيواني، بعد الاحتفال تؤخذ كل الكراسي إلى بيت الكراسي مرّة أخرى.

ويُحتفـــل بهذا العيد مرتـــان كل ٤٢ يوماً، يقع أحد الأعيـــاد في يوم الأحد (Akwasida)، والثاني في يوم الأربعـــاء (Wukudae)، ورئيس القبيلة هو المسؤول المباشر عن هذا العيد وطقوسه؛ حيث إنّه الوريث الشـــرعي للأسلاف والأجداد، وهو يرى أنّ هذا العيد من أعياده الخاصّة التي يرتبط بها روحياً مع أســـلافه؛ لذا يبدي أحوالاً غايـــة في الاحترام والتخشّع لأرواح الأســـلاف، بدءاً بخلع نعليه دلالة على الاحترام [2].

فـــي الصباح الباكر ليـــوم Adae يخرج رئيس القبيلـــة برفقة شـــيوخها ليدخل بيت الكراســـي، يطرق حامل الكراســـي الباب أولاً، ثم يدخل، يعقبه

(1) (Kofi.p.39).

(2) (Sarpong).

رئيس القبيلة ثم الشيوخ، خالعين نعالهم وكاشفين صدورهم دلالة على الاحترام الفائق، ثم يبدأ الرئيس بتحية الأسلاف قائلاً: Nananom mema mo akye o (صباح الخير أيها الأسلاف!)، ثم يقوم بطقس الإراقة، وينادي كلّ واحد منهم باسمه، بدءاً بأكبرهم، تُذبح بعد ذلك الشاة التي يلطّخ بدمها الكرسيّ الجديد ويُجهز الطعام الخاص بهذا الاحتفال، ويسمّى nsamannuane، ويعده حمالو الكراسي تحت الإشراف المباشر من الرئيس، في غضون ذلك يغادر الرئيس بيت الكراسي ويتوجه إلى عرشه، ليبايعه أتباعه بيعة رسمية.

عندما ينتهي تجهيز الطعام يرجع الرئيس إلى بيت الكراسي مرّة أخرى ليقدم الطعام لأرواح الأسلاف، وقبل أن يضع الطعام في المنضدة الخاصّة بهذا الطقس؛ يضع ماء ليغسل الأسلاف أيديهم، ويغسل هو أيضاً يده من الماء نفسه، ثم يتذوق من الطعام، ويقدم بعضه للحاضرين معه داخل الغرفة، ثم يخرج تاركاً الطعام للأسلاف، يعتقد أنه بهذا الطقس تحتفظ كراسي الأسلاف بأرواحها، ويرتبط الرئيس الجديد بصورة مباشرة مع أسلافه [١].

عند قبيلة الأشانتي في غانا يسوّد الكرسي الجديد بدم بشري بالكيفية الآتية: عندما يموت الملك السابق تجتمع أخواته وأبناؤهن لاختيار الملك القادم، فنظام التوريث يتم بالخؤولة (نظام طوطمي)، ويطرح الخيار، وتكون التي تقدم دم أحد أبنائها ليغسل به كرسي الأجداد الذهبي هي المؤهّلة لتكون الخلافة في بيتها. عندما يتقلد الملك الجديد يأمر بذبح مجموعة من الناس ليرافقوا أخاه الذي ذبح فداءً للكرسي- كعبيد - في حياته الأخرى، ويتحول المذبوح بدوره إلى سلف مبجّل [٢].

## ٢. الأسلاف عند المجموعات القبلية في غرب إفريقيا، وطقوس تعظيمهم:

### آ. الأسلاف عند قبيلة الإيفي Ewe في توغو:

يعتقد وثنيو قبيلة الإيفي في توغو بسلطة الأجداد الفائقة، وبوساطتهم بينهم وبين الربّ، وفلسفتهم في ذلك أن الميت أقرب إلى الربّ من الحي، لكونه قد انتقل إلى بعد آخر يقرّبه من ربّه أكثر فأكثر، ويتوسل بالجد السابق فالسابق، فمثلاً عند حدوث مصيبة من مرض أو قحط فإنهم يصلّون للأجداد بالكيفية الآتية: (أيها الجد - Tobbe أو Togbui - فلان - يسمى باسمه - انقل دعواتنا إلى الجد فلان - الذي يليه تصاعدياً - ثم إلى الجدّ فلان، ثم إلى الجدّ فلان، وصولاً إلى الرب (الذي يُطلقون عليه اسم ماوو).

يستشار الأسلاف عند الإيفي في كل القضايا والحوادث، فمثلاً عند الزواج تشتري قبيلة البنت خموراً غالية جداً، ويُقام طقس الإراقة قائلين: أيها الجدّ فلان. ثم يذكر الأجداد تتابعاً إلى أن يصلوا إلى والد البنت الذي إن كان حياً يقال لهم: إن بنت ابنكم فلان تريد الزواج. وإن كان ميتاً فإنه يحسب ضمن الأسلاف، ويقال: إن حفيدتكم فلانة تريد الزواج، وليكن هذا في علمكم [٣].

توضع أحياناً أنصاب ممثلة للأسلاف داخل البيوت، وترسم صورهم على جدران المعابد ليتذكرهم أحفادهم.

### ب. الأسلاف عند قبيلة المندي في سيراليون:

يمثل الأسلاف عند الميندي دور الوسائط الروحيين، عند حدوث أية ملّمة أو قضية ذات بعد روحي؛ يشعر الأسلاف بها قبل خمسة أو ستة أيام قبل إقامة الاحتفال الطقوسي الخاص بتلك القضيّة.

من أهم المواسم التي تقوم قبيلة المندي فيها باستدعاء الأسلاف موسم الحصاد، حيث يتكون الاحتفال من قسمين، يبدأ أولهما في بدء الموسم: شهر سبتمبر، والجزء الثاني في ديسمبر. حينما

(1) (Kofi: 1967).

(٢) (شيخ صالح).

(٣) (شيخ صالح/ سوسا).






تحصد أول الحبوب، يذهب بها المسؤول عن الطقس إلى التلّ المختصّ بالاحتفال بالأسلاف معلماً إياهم ببدء الحصاد، منادياً كلّ واحد منهم باسمه، واضعاً الحبوب في ذلك المكان، في اليوم التالي يعود إلى المكان نفسه حاملاً معه زهرة الأرز (مصنوعة من أوراق أرز محصودة حديثاً) موضوعة على ورقة موز، قائلاً: (لقد جلبنا لكم زهرة الأرز، لتراعوا وتحموا لنا أرزنا في مزارعنا من الطيور والهوام والحيوانات لئلا تفسده، نريد أن نبدأ حصاد الأرز فرجاؤنا أن تحموا مزارعنا، لا تأكلوا هذه الزهرة لأنها حلوة؛ بل كلوها لتهتموا وتراعوا حياتنا) [1].

بعد هذا الطقس تتوجه مجموعة منهم لصيد بعض الحيوانات لتقديمها كقرابين للأجداد، وفي يوم محدد يُطبخ أرز مع زيت النخيل ولحوم الحيوانات المصيدة وتقرب كتقدمة لأرواح الأجداد، ولا ينسى القوم أن يسكبوا بعض الماء على الأرض ليشرب الأسلاف ويغسلوا أيديهم قبل الأكل، ثم يوضع الطعام على ورقة موز، ويوضع على الحجر المقدّس المخصص لهذا الأمر.

ج. الأسلاف عند الفون Fon في بنين:

يعتقد وثنيو الفون أن أرواح أجدادهم تعيش داخل أو قرب المياه، ويذهب السادن (أو السادنة) قرب النهر عند بداية طقوس الأجداد سنوياً في شهر مايو أو يونيو، حاملاً القِدر والحصير المخصصين لهذه الطقوس الاحتفالية إلى جرف النهر أو شلال المياه، ثم يبدأ السادن بدعاء الأسلاف إلى الخروج من أعماق المياه والدخول في القِدر، وبعد هذا النداء يعتقد السادن أن الأرواح قد حلّت داخل هذه القدور، ويعرف دخولها فيها بهزات عنيفة تعتري حملتها، ثمّ يرجع بها إلى القرية لإكمال الطقوس هناك.

توضع القدور في المذبح المخصص للقرابين داخل المعبد، ويتولى السادن نقل الصلوات بين الجمهور وأجدادهم، والتي تبدأ في الغالب بشكر الأجداد على حمايتهم للقرية في العام الماضي، وسؤالهم حفظها وحمايتها في هذا العام أيضاً. تُخرج كراسي الأجداد من أماكنها، وفوق كل كرسي مظلة ملونة بألوان عديدة، وهذه الطقوس لبيان العلاقة القوية - والودّية جداً - بين أفراد القبيلة وأسلافهم.

د. الأسلاف عند الإيقو Egun [2] في بنين:

يسلك وثنيو هذه القبيلة مسلكاً غريباً جداً في تعظيم الأسلاف، حيث ينبشون قبورهم بعد موتهم لإخراج جماجمهم بعد سبعة أو تسعة أشهر من الدفن (تنبش قبور النساء بعد سبعة أشهر وقبور الرجال بعد تسعة أشهر)، تغسل الجماجم جيداً، وترش عليها دماء قرابين من الديوك الصغار، ثم تحفظ الجماجم في مكان معين انتظاراً ليوم الاحتفال الكبير (يوم تشريف وتذكر الموتى).

في ذلك اليوم تُجلب كل الجماجم إلى وسط ميدان الاحتفال، موضوعة في أوعية ومغطاة بقماش أبيض نظيف، يوضع على الآنية التي تحتوى على جماجم الرجال قبعة وسيفين، وتلك التي تحتوي جماجم نسائية يوضع عليها حلي وزينات نسائية. وفي اليوم التالي تؤخذ الآنية في موكب مهيب يقوده السدنة إلى حفرة كبيرة تسمى حفرة المحيط (Ocean Pit)، ثم تبدأ مراسم الدفن للجماجم.

طقس آخر عند نفس القبيلة يسمى Ago، يُقام بعد عام من دفن الجماجم، حيث ينصب الوثنيون خياماً قرب المحيط (أو النهر)، ويذبحون عدداً من القرابين، ويطبخون الطعام ويجعلونه داخل الخيام، ويدعون الأسلاف ليدخلوا إليها ويتناولوا الطعام

(1) Harris, p.18).

(2) أصل الكلمة egun gun، ومعناها في لغة اليوروبا: الهيكل العظمي، حيث يعتقدون أن الميت قد رجع وقد يؤذي، ويُمثل الأمر في طقس يلبس فيه السدنة أزياء خاصة، تخيط بالبد (مليونين فرنك تقريباً)، وعند خياطته تجرى طقوس خاصة، ولا يُسمح لأحد برؤية السادن حين يلبس ذلك الثوب، ولا يمسه إنسان لاعتقاد سائد هناك بأن من يمسه يموت، وأن من بداخله إنسان ميّت. (أحمد محمود - بنين).



الـــذي صنع لهم خصوصاً! يُنادى كلّ جد بالاســم، ويدخل الســادن داخل الخيام، ويمكث - حســب اعتقادهم- مع أرواح الأجداد، ويخرج لينقل لقومه مقدار فرح الأجداد واستمتاعهم بالطعام الذي أُعدّ لهم، وهو خبر يستقبله القوم بفرح وابتهاج كبيرين. فـــي اليوم التالي يقرب الشــيوخ قرابــين الطيور، ويقطعــوا أمعاءها إلى قطــع صغيرة، وتوضع على الزوائد المعدنية فـــي الخيام التي نُصبت للأجداد؛ كدلالة خاصة على الاحترام والتبجيل.

### ثالثاً: الآلهة والأرواح:

هناك عـــدد كبير جداً من الآلهة التي تُعبد في غرب إفريقيا كوســائط بين الخلق والربّ، فيوجد على سبيل المثال عند قبيلة الإيفي وحدها، في توغو وغانا، ما يقرب من ٦٠٠ إله [١]!

والاعتقاد السائد عند وثنيي الغرب الإفريقي أن الآلهة (الأرواح المعبودة) قد خلقها الإله الأكبر لأداء أمور معيّنة، يعني هذا أنهم لم يأتوا باختيارهم، وهم يشتركون مع سائر مخلوقات الأخرى في المحدودية والقصور أمام القوة العظمى للخالق، حيث يستمدّون قوتهم وفعاليتهم من الربّ [٢].

يعتقـــد بعض الوثنيـــين أن هذه الآلهـــة أبناء للربّ ورســـل له، وبعضهم يعتقد أنهم وكلاء له على الأرض. ويمكن أن تكـــون هذه الأرواح المعبودة إناثاً أو ذكوراً، أرواحاً خيّرة أو شرّيرة، وقد أعطيت هذه الآلهة مواضع للســكن حسب تصوّرهم، كالأشجار، المياه، الصخور، حتى بعـض الحيوانات، ويعتقدون أن للأرواح قدرة غير محدودة على التنقّل من مكان لآخر ومغادرة أماكنها التي تسكن فيها.

كما يعتقدون أن لهـــذه الآلهة قوى خارقة، وأن لكل إله (أو إلهـــة) نطاقها الخاص، فيوجد عندهم آلهة للحرب، والخصب، والشفاء والأوبئة، والزراعة، والصيـــد، وبعض مظاهر الطبيعـــة كالرعد والبرق والصواعق وغيرها لكل مظهر منها إله، وفي نطاق أعمالها قد فوضها الـــربّ - بزعمهم - تفويضاً كاملاً للعمل والتأثير، ولهذه الآلهة سدنة وسادنات، ولا يدل جنس الســادن (الذكـــورة أو الأنوثة) على جنس الإله الذي يخدمه أو تخدمه [٣].

(1) (Alex / David 1995).
(2) (Kofi).

وتنقســـم هـــذه الآلهة من حيث نطـــاق العمل والتأثير إلى قسمين:

قسم خاص بحماية المجتمع والقبيلة، يجوز لكل فرد أن يتملّكـــه، وهذه الآلهة يعتقد أنها أبناء للربّ - تعالى وتقـــدس -، وأنها تعبد من زمن بعيد جداً بأسمائها وأوضاعها الحالية، تُسمى عند الأكان في غانا - على ســبيل المثال - Tete abosom، وعند الإيفي في توغو Togbuitrowo [٤].

القسم الثاني آلهة حديثة، تُستخدم في الغالب لطلب الصحّة والأعمال الســحرية، تُســمى عند الأكان في غانا Suman Brafo أو Bosom Brafo ، وعند الإيفي في توغو Dzositrowo.

### رابعا: السدانة:

الســـدنة [٥] هم الوسطاء بين الآلهة وعابديهم، المترجمـــون لحاجياتهم، وقـــادة الطقوس والترانيم الاحتفالية. ويمارس الســـدنة فـــي المجتمع غرب الإفريقي أدواراً أخرى غير العبادة وسدانة الأوثان، فهم يُعدون حكماء وأطباء شعبيين وقضاة لأقوامهم كذلـــك، يذكـــر Idowu حول الســـدنة في أرض اليوروبـــا بنيجيريا: (الوظيفة الرئيســـية للســـادن عند اليوروبا هي الوســـاطة بينهم وبين آلهتهم، هو الشخص الذي يرتبط بالبشر والآلهة في آن واحد، هو الذي بإمكانه أن يسمع كليهما (الآلهة والبشر)، وهو الذي يرفـــع للآلهة صلوات عابديهم ليقبلوها، ويبارك العبّاد نيابة عن الآلهة) [٦].

(3) (Dr. Peter 1967).
(4) (N.K. Dzobo 1971).
(٥) يُسمّى السدنة Okomfo عند الأكان في غانا، Tronua عند الإيفي، Alufa عند اليوروبا (أو Olufa (أحمد محمود)، و Eze-alusi عند الإيبو في نيجيريا Kofi).
(6) (Idowu 1973: p130).




السدانة أمر يجد احتراماً وتقديراً كبيرين جداً عند وثنيي الغرب الإفريقي، وهو أمر مفتوح للرجال والنساء، وبالرغم من أن السدانة تكون وراثية في بيت معيّن من القبيلة في بعض المجتمعات؛ فإن بعض الأشخاص يرشحون ليكونوا سدنة إن أثبتوا كفاءتهم لذلك، وثمة طريقة واحدة للإثبات، وهو أن يتلبس الإله أو الروح المعبود بالمرشّح في أثناء الطقوس، ويعد هذا التلبس (Possession) الإذن العملي باختيار الشخص المتلبّس ليكون ضمن سدنة الإله المعيّن.

يخضع السادن المختار بعد ذلك لتدريبات عديدة حول عمله الجديد، تتضمن دروساً في القانون الخاص بالإله، والمحرمات، وكيفية الرقص، ودلالة كل رقصة، والموسيقى ونغمات الطبول، كما يجب عليه أن يتعلم الحكمة الشعبية (العلاج بالأعشاب وأوراق الشجر)، والطبّ الروحي، وكيفية طرد الأرواح الشريرة من أجسام العبّاد، كما يجب عليه أن يتعلم تاريخ المجتمع وعاداته وتقاليده بتوسّع.

وكثير من الأمور الاجتماعية توكل للسدنة بوصفهم قادة روحيين للمجتمع، كما يؤدي بعضهم أدوار القادة السياسيين، كما حدث ذلك في قرى Rukuba في نيجيريا، ومناطق Guan في غانا (قبل أن يتبنى Guan نظام الأكان Akan في الرئاسة) [١].

ليست للديانات الإفريقية كتب مقدّسة كتلك التي للوثنيات المشهورة في شبه الجزيرة الهندية على سبيل المثال، أو طقوس جنائزية مكتوبة بلغة مقدّسة كتلك الموجودة في الوثنية المصرية، فالطقوس أمر متوارث، وغالباً ما يختار القائمون على سدانة الأوثان هناك بالوراثة أو بالتلبّس، وهو ما يجعل دراسة الأديان الإفريقية أمراً ليس باليسير؛ لذا تعتمد جلّ الدراسات على الملاحظة المباشرة للطقوس، يقول Mbiti : (واحدة من صعوبات دراسة الديانات والفلسفة الإفريقية تكمن في انعدام كتب مقدسة خاصة بها، الديانة في المجتمعات الإفريقية مدونة لا في ورق، لكنها مدونة في قلوب الناس، وعقولهم، وتاريخهم الشفهي، وطقوسهم، والشخصيات الدينية مثل الكهنة، وصنّاع المطر، والكبار القائمين بالمهام، حتى الملوك، كل فرد هو حامل ديني، بالتالي علينا دراسة ليس فحسب المعتقدات الخاصة بالإله والأرواح، لكن أيضاً الأشخاص المسؤولين عن الطقوس والاحتفالات الرسمية. ما يفعله الناس يتم تحت تحفيز ما يعتقدونه، وينبع ما يعتقدونه من ما يفعلونه ويجربونه، بالتالي الاعتقاد والممارسة في مجتمع إفريقي تقليدي لا يمكن الفصل بينهما: إنهما ينتميان إلى كلّ واحد) [٢].

### خامساً: اليوم الآخر:

لا يؤمن وثنيو الغرب الإفريقي، في الغالب، بالبعث بعد الموت، ولكن الإيمان بتأثير الأموات أمر حاضر على الدوام في فلسفاتهم، فهم يعتقدون أن هناك حياة من نمط آخر يحياها أولئك الذين دخلوا في هياكل الأجداد.

يقول القس جاك ماندلسون: (في جميع الأديان الإفريقية التقليدية اعتقاد فيما وراء الموت بشكل أو بآخر، كما تعتقد أن المتوفى تستمر حياته في عالم الأرواح... ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضاً في هذه الديانات، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثير من الناس.. وتعتقد قبائل التوركانا من كينيا - مثلاً - أن الله، مع أنه يشفي من المرض، قد يصيب به أولئك الذين يغشون المحارم ويخالفون الطقوس الهامة) [٣].

إن عدم الإيمان باليوم الآخر جعل مفهومهم للجزاء منصبّاً على الدنيا فقط، حيث لا يظنون وجود عقوبة أو ثواب في الآخرة، فالمجرم ينال جزاءه في حال حياته، والبارّ يلقى من السعة

(1) (Kofi 1978: p 75).

(2) (Mbiti 1969).

(٣) الأديان في إفريقية المعاصرة. جاك ماندلسون.

والرغد ما يكافئ برّه.

ينقل لنا Mbiti هذه الرؤية قائلاً: (ليست هناك لا جنة يتم التطلع إلى ولوجها، ولا نار تستوجب الخوف منها في العالم الآخر، لا تتطلع روح الإنسان إلى تخلص من الخطيئة، ولا إلى تواصل أوثق بالإله في العالم الآخر. إن هذه الحقيقة عنصر مهم في الديانات التقليدية، وهي حقيقة سوف تساعدنا في فهم تركيز التدين الإفريقي على الأمور الدنيوية، مع الإنسان في قلب هذا التدين. وهنا أيضاً تظهر أهمية المفهوم الإفريقي لمسألة الزمان، فالديانات والفلسفة التقليدية تعنى بالإنسان في الزمان الماضي والحاضر، يظهر الإله في الصورة كتفسير لصلة الإنسان بالزمان، ليس هناك أمل تبشيري أو نظرة رؤيوية مع الإله بارزاً في لحظة مستقبلية ما، جالباً تحولاً جذرياً في حياة الإنسان العادية. لا يصور الإله في علاقة أخلاقية، وروحية مع الإنسان. أفعال الإنسان التعبدية واللجوء إلى الإله هي براجماتية ونفعية أكثر منها روحية أو روحانية) (1).

### سادساً: القضاء والقدر:

يعتقد الوثنيون أن كل الأحداث التي تطرأ على البشر إنما هي جزاء أعمالهم، خيراً أو شراً، فتراهم يؤمنون بأهمية الكسب في المصير، ولا يُرجعون تقدير هذه المسائل إلى الخالق سبحانه، بل ولا لآلهتهم الوثنية، إنما ينسبون قضية التقدير إلى ذواتهم، ويرون الجزاء نتيجة لتصرفاتهم.

وأخالف هنا ما ذهب إليه ب. س. لويد؛ إذ يذكر أن (شعوب إفريقيا لا تزال تؤمن بشكل ما بالقضاء والقدر، وأن الإنسان يمكنه تعديل قدره بالأعمال الصالحة) (2)، حيث تدل أنماط تعبدهم وإيقانهم بالجزاء ونمطهم في التحكيم إلى أن المسائل ترتبط بأعمالهم التي ترضي أو تغضب آلهتهم، لذا يسترضونها على الدوام بالقرابين؛ لأنها مظنة الغضب والثورة باستمرار، ويتعلقون بالتمائم والتعاويذ الطاردة للأرواح الشريرة التي تجلب غضب الآلهة، فلا يرجعون حادثة ما أو مرضاً أو ظاهرة من الظواهر الكونية أو توفيقاً أو خذلاناً إلا إلى أعمالهم المحضة، ومزاج آلهتهم.

## المحور الثالث: طرق دعوة الوثنيين إلى الإسلام:

إذا صح تصنيف العقائد الوثنية إلى وثنيات بسيطة ووثنيات مركّبة أو معقّدة (بناء على إيمانهم بوجود إله كلي القدرة خالق للكون)؛ فإن وثنية الغرب الإفريقي تندرج تحت الصنف الأول (وثنيات بسيطة).

وكما سبق في هذا البحث؛ فإن وثنيي الغرب الإفريقي يؤمنون بوجود إله خالق سام يفوق الإدراك، ويقرّون بخلقه للسموات والأرض والأنهار والجبال، ويمكن تشبيه طريقتهم في تناول المعتقد بطريقة مشركي مكّة الذين كانوا يقرّون بخلق الله تعالى للسموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان : ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر : ٣٨]، وبالقدر نفسه إن سُئل أحد وثنيي الغرب الإفريقي: من خلق السموات والأرض؟ فلن يملك جواباً غير أن يقول: الله.

وإذا دار النقاش معهم حول سبب تعلقهم بالأوثان؛ جاءت الإجابة مماثلة تماماً لحجة مشركي مكة الواهية، والتي أجازوا بها تعلقهم بالأوثان، وهي اتخاذهم شفعاء عند الله، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

(1) (Mbiti 1969).

(2) لويد ١٩٨٠م، ص ٤٩.

الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس : ١٨].

كما يتشابه معتقدهم في نقطة محورية، وهي إشراكهم الجنّ والملائكة (يسميها وثنيو الغرب الإفريقي: أرواحاً، أو فودو) مع الله سبحانه وتعالى، والزعم بأنهم أبناء لله وبنات له (تعالى عن قولهم)، وهو عين ما ذُكر عن مشركي مكة: ﴿وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٠]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ : ٤٠ - ٤١].

وكما أشار القرآن إلى غلوّ مشركي مكة في تعظيم آبائهم، فإن لوثنيي الغرب الإفريقي غلوّاً مماثلاً، لكنه يفوق هذه الدرجة باتخاذ أرواح الأجداد وسائط إلى الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً -.

وخلاصة الأمر أن شبهات الوثنيين في الغرب الإفريقي يمكن علاجها بطريقة القرآن الناجعة الناجحة المحكمة، وللمسلم بحمد الله ذخيرة وافرة من الحجج والبراهين والطرق الإلهيّة والنبويّة في علاج هؤلاء الذين ينتظرون من يخرجهم ﴿... مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١].

وأورد في هذا المقام أهم أسباب الشرك وطريقة القرآن في علاجها:

لوثنيي الغرب الإفريقي إيمان عميق بسلطة الآباء الروحيّة، كما مرّ معنا في البحث، وهو أمر مشترك بينهم وبين المشركين الأوائل، ومعتقد أكثرهم أن هذه الآلهة التي يعبدونها قد ورثوها كابراً عن كابرٍ فلا يسوغ لهم تركها.

▪ **المناقشة:**

يُنبّه الوثني على أن الآباء والأجداد قد قضوا، وأنهم أفضوا إلى الله تعالى، وأنهم في هذه اللحظة لا يعقلون شيئاً مما يدعوهم به أبناؤهم، ولا أحد ذو علم كامل، وواحد من وثنيي هذا القرن يعرف آلاف المعلومات العلمية والتقنية والدينية أضعاف ما كان آباؤه يعرفونه، أفيتبع من يعلم جهلهم تجاه قضية ما وهو قد جاءه البيان؟

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة : ١٠٤].

حتى لو ثبت عندهم أن الأجداد قد أمروا بعبادة ما، أو أرادوا شيئاً ما هل ننظر لما يريده الأجداد أم لما يريده خالق السموات والأرض؛ وأنتم تقرون بإله عظيم كلي القدرة؟

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨].

ثم لو سمّى الأجداد هذه الأوثان آلهة، وأنتم تبعتموهم في التسمية على أنها آلهة تضر وتنفع، ولم ينزّل الإله الأعظم هذا الأمر عليكم ولا على آبائكم؛ فما الذي يجعلكم تعتقدون ألوهيتها وما جاءكم بيان من الله بذلك، أليس هذا مدعاة لوقوع الغضب والسخط عليكم من الله؟!

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف : ٧١]، ويمكن للداعية أن يذكر لهم قصص الأنبياء الذين جادلوا أقوامهم في عبادتهم لغير الله، فلما أبوا أخذهم الله بالعذاب.

يبين للوثنيين أن الله تعالى لما خلق آدم (وهو الأب الأول للكل، ولو كان ثمة أحد الآباء أحق

بالاتباع فهو الحقيق بذلك لكونه السلف الأول)، أخرج من صلبه كل الذرية التي ستكون من بعده، بقدرته سبحانه، وأخذ عليهم العهد بالإقرار بوحدانيته، وأشهد كل واحد منا على نفسه ألست بربكم؟ فقلنا جميعاً: بلى شهدنا على أنفسنا بأنك الربّ المستحق للعبادة وحدك. ثم منعنا الله أن نأتيه مشركين ونقول له إنما تبعنا آباءنا. فعندها لن ينفع الآباء أبناءهم، بل ينشغل كل واحد بنفسه، وأنتم قد رأيتم هنا في الدنيا قبل الآخرة كيف أن الإنسان إذا أصابته مصيبة فإنه لا ينظر إلا إلى نفسه كيف يخلصها، فلو سقطت مجموعة من الآباء والأبناء في المحيط وكلهم لا يعرفون السباحة، فكل واحد منهم سينشغل بنفسه ومحاولة الخروج ولن يلتفت إلى الآخر فكيف بيوم القيامة حين نقف أمام الله ونرى العذاب الشديد بأعيننا! كل واحد سيقول نفسي نفسي! ولن ينفع الآباء الأبناء!

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ...﴾ الآيات [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]، والمراد من هذا النقاش أن الله تعالى قد خلق الإنسان مستعداً بفطرته وبالأدلة الكونية للتوصل إلى الحق والاعتراف بخالق الكون.

ويبين الداعية لهم أن كثيراً من السدنة وأصحاب الأصنام وخدامها، إنما يبحثون عن العلو وطلب الرفعة بين أقوامهم بسبب هذه الآلهة؛ ولهذا يزعمون أنهم ورثوها من آبائهم، وأنهم لا يريدون أن يتركوا ميراثهم، فيضفون عليها قداسة وشرعية، والحقيقة أنهم يريدون العلوّ والاستخفاف بعقول البسطاء، وأخذ غلتهم وثمار أرضهم بهذه الحجة، ويرون أن في عقيدة التوحيد ونبذ الآباء منازعة لهم في سلطانهم.

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

ويمكن للداعية أن يسأل الوثنيين: من أمركم بعبادة هذه الأصنام؟ فإن كان الجواب: وجدنا آباءنا يعبدونها ونحن نعبدها. يورد حجة إبراهيم عليه السلام: هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم حين تعبدونهم؟ أو يضرونكم إن لم تعبدوهم؟ وإذا كانت لا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع؛ فما الداعي إلى عبادتها؟ ألمجرد تمسك آبائكم القدماء بها؟

ويمكن للداعية أن يقتدي بشعيب عليه السلام مع قومه حين قالوا له: ﴿... أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؛ قائلاً لهم: أخبروني يا قوم، إن كنت على بصيرة وبرهان قاطع من ربي فيما أدعوكم إليه (وأنتم ليس لكم البرهان القاطع على صدق الأجداد والآباء)، وقد رزقني الله هذا الرزق الحسن الذي ترونه (ويحبّذ أن يأتي الداعية إلى وثنيي القرى بهندام جيّد)[1]؛ فهل يُعقل أن أخالف أمر الله ونهيه وأعْظم أوامره أن نوحده، وأعْظم نواهيه أن نشرك به!

ويمكن للداعية أن يقتدي بيوسف عليه السلام وهو يدعو صاحبيه في السجن، من الأحسن أن تمارس هذه الطريقة عندما يجد الداعية قبولاً ولو مبدئياً من أهل القرية (أو الطائفة المدعوة)، قائلاً: يا قوم؛ أهذه الأوثان والمعبودات المتعددة في الذوات والصفات، التي لا تضرّ ولا تنفع

(١) أذكر أنه في إحدى رحلاتنا الدعوية بإحدى القرى التي اهتدى بعض أفرادها؛ كانت هناك معارضة كبيرة من سدنة الصنم على وجودنا في المكان. وكان معنا الشيخ محمد آدم عرب (مدير مكتب المنتدى الإسلامي حالياً. وقد كان وقتها مسؤولاً من قسم الدعوة). فدخل في نقاش مع السدنة حول عدم جدوى عبادة غير الله. فقال له أحد السدنة: هل إذا صرنا مسلمين سيزيد رزقنا؟ فقال لهم الشيخ محمد عرب: انظر إليّ الآن! (وكان الشيخ في حلة جميلة) هل تراني يبدو عليّ الفقر؟ فأسلم السادن من فوره.




خير للعبـــادة، أم الله الواحد المتفـرّد بالألوهية والربوبية، المعبود بحق والغالب على كل شيء؟ ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأوثان ما هي إلا مجرد أسـماء لا حقيقة لها، سميتموها آلهة أنتم وآباؤكم من تلقاء أنفسـكم، ما أنزل الله بها من سلطان، أنتم من سميتم هيفيسو إلهاً للرعد، هل الله هو الذي قال لكم هذا؟ أنتم من سـميتم ساكباتا إلهاً للأرض! من أين لكم هذه التسمية؟ هل أمركم الله بأن تسموه هكذا؟ أهذا هو الدين الذي يرتضيه الله؟ ويورد الداعية أسـماء الآلهة المعبودة في المنطقة ويفندها اسـماً اسماً، وهي جمادات لا تسـمع ولا تُبصر، ولا تضرّ ولا تنفع، ما أوحى الله بعبادتها، وما أنزل بها من حجة أو برهان.

الحجة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ... الآيات [يوسف : ٣٩ - ٤٠].

يذكر الشيخ عبد الرحمن إدريس قصة واقعية حدثت معه وأحد عابدي هيفيسو، يقول: (كنا في قرية (فدبي) الذين يعبدون هيفيسـو، وكنت في مجلس للوعظ والإرشـاد في وسط القرية تحت شـجرة، فإذا برجل ثمل يترنح الميمنة والميسـرة إلى أن وقف أمام الجمع، يسـتهزئ بالمسـلمين والضيوف الذيـن قدموا إليهـم - يقصدنا -، وتعجـب كل أهل القرية من تصرفه، ثم انتهى به الأمر إلى أن جلس بجانبنا يسـتمع إلى المواعظ التـي كانت تدور حول الآيـات الكونية، ووجوب إفراد المولى سـبحانه بالعبادة، وعدم نفع الأوثان والنصب وزيادتها لأصحابها رهقاً وتعباً. واختتمنا مجلسنا ووعدناهم بالعودة غداً.

ثم لـما جئنا فوجئنا بـأن أول القوم حضوراً هو ذلك السكران، لكنه بدا لنا اليوم بحالة طيبة وذهن صـاف قائلاً: لقد فهمـت كل ما قلتموه بالأمس ووعيته، وأنا اليوم أريد أن أعلن إسلامي، وأن أخبركـم عما أعرف حول هذه الأوثان. فمن العجب أنه أول من أسـلم في القرية بأسـرها، وأقمنـا أول مصلى في القرية إلـى جوار بيته، على قطعة أرض جادت بها نفسه في سبيل هذا الدين، فأسميناه أبا بكر).

### المصادر الأوليّة:


١ - النحوي، إبراهيم أبو بكر، ٢٠٠٤م.

٢ - أزياب جبريل، ٢٠٠٤م.

٣ - غمادوكو زبير، ٢٠٠٤م.

٤ - ناصر الحسن، ٢٠٠٤م.

٥ - شعيب الحسن، ٢٠٠٤م.

٦ - محمـد آدم عرب، مديـر مكتب المنتدى الإسلامي - توغو.

٧ - أحمـد محمـود، مدير مكتـب المنتدى الإسلامي - بنين.

٨ - صالح الحسـن، مسـؤول الحـج باتحاد مسـلمي توغو ورئيس قسـم الرعاية الاجتماعية بالمنتدى الإسلامي - توغو.

٩ - على سوسا - مسؤول شؤون المهتدين في اتحاد مسلمي توغو.

١٠ - سـدنة وثن هوسا فودو، توغو - لومي إيبي كبوتا.

١١ - سـدنة وثـن هوسـا فـودو: توغو - تابليغبو.

١٢ - قاضـي المحكمة الوثنيـة: توغو- على الطريق بين لومي - تابليغبو.


### المراجع العربية:


١ - القرآن الكريم.

٢ - المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي.

٣ - أبحاث في السحر، مجموعة دراسات، ترجمة محمد أسليم، مكناس - مطبعة سندي، ١٩٩٥م.

٤ - بحث الجنس البشري عن الله، إصدار برج المراقبة، شهود يهوة.

٥ - ضــرار عميــر: مقــال، جريــدة البيان الإماراتية، العدد المنشور في ٢٠٠٢/١/٩م.

٦ - الرب واللــه وجوجو (الأديان في إفريقية المعاصــرة)، تأليــف القس جاك مندلســون، من الكنائــس التوحيديــة (unituarian churches) - ترجمة إبراهيم أسعد، ص ١٠٨.

٧ - د. آمــال النور حامــد، الجهد المبذول ذو الطبيعــة الراقصة والانفعــالات المصاحبة له في طقوس الزار، مجلة الآثار الســودانية العدد الرابع، يوليو ٢٠٠٥م.

٨ - د. آمــال النــور حامــد: الــزار مفهوماً أنيمياً.

٩ - أسامة يس: المعاني.

١٠ - محمــد الجوهري: علــم الفلكلور، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٠م.

١١ - بريتون ســاكس لويد: إفريقيا في عصر التحــول الاجتماعي- ترجمة شــوقي جلال، كتاب عالم المعرفة رقم ٢٨، أبريل ١٩٨٠م.

